جامعة الجيلالي بونعامة-خميس مليانة

قسم العلوم الانسانية-شعبة التاريخ

تخصص: تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء.

السنة الأولى ماستر.

محاضرات مقياس: مصادر تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء خلال العصر الوسيط:

المحاضرة (03-04):

تعتبر المصادر العربية التي كتبها الرحالة والجغرافيون العرب أولى المصادر التي تحدثت عن بلاد السودان خلال العصر الوسيط، لأنه لم تتوفر كتابات محلية تنقل ماجريات الأحداث فيها، أو رصدت الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية...إلخ، لذلك يعزو الكثير من المؤرخين وبالأخص الغربيين منهم أنه بانتشار الإسلام في شمال إفريقيا وتوسع رقعة العالم الإسلامي، هو الذي ساهم في دخول بلاد السودان التاريخ من خلال ظهور كتاباب لرحالة وجغرافيين مسلمين كانوا يجوبون ويسيحون في بلاد الإسلام سواء برغبة ذاتية أو في عمل ومهمة موكلة لهم، وذلك من خلال اهتمام دولة الإسلام بمعرفة وتحصيل أكبر قدر من المعلومات عن المناطق التي دخلها الإسلام أو التي هي بجوارها وتتعامل معها، كما هو حال العلاقات القديمة بين شعوب شمال إفريقيا (بلاد المغرب الإسلامي) وشعوب بلاد السودان ما وراء الصحراء وخاصة التجارية منها.

وعلى الرغم من المعلومات الهزيلة والأخبار السطحية التي كانت تنقلها أولى هذه المصادر في أول الأمر عن بلاد السودان منذ القرن الثاني الهجري (2هـ) الثامن الميلادي (8م)، بل تصل في مرات كثيرة منها إلى أخبار قريبة من الأحجيات والخرافات نقلها مدونوا هذه المصنفات دون تمييز وتمحيص لأنهم اعتمدوا ما تذكره الرواية الشفوية (الشعبية) لأناس امتهنوا التجارة مع بلاد السودان وتعاملوا مع أهلها أو تواترت لأذهانهم شيء عنها، لكنهم على الأقل استطاعوا تقديم أولى المعلومات عن أسماء ممالك وشعوب فيها، مثل ما ذكر الفزاري (عبد الله محمد بن إبراهيم بن حبيب) (ت 796م) إسم "غانة" منذ

Univ-DBKM.Dz

نهاية القرن 8م: "عمل غانة بلاد الذهب ألف فرسخ في أربعين فرسخا" في كتابه المقياس (من معجم البلدان).

لقد كانت هذه المصنفات في معظمها أول الأمر لرحالة أو جغرافيين ومؤرخين ينحدرون من جهة المشرق الإسلامي القريبة لعاصمة دولة الإسلام (مقر الخلافة) التي أصبحت تنتشر وتزدهر بها العلوم والمعارف، لذلك كان اهتمامهم بذكر بلاد المشرق الإسلامي وتقديم تفاصيل مدنه وإماراته أهم شيء يركزون عليه في مصنفاتهم، عكس بلاد المغرب الإسلامي الحديثة المعرفة بموطنها وأهلها، فما بالك ببلاد السودان ما وراء الصحراء التي كانت تذكر في مصنفاتهم كهامش عرضي فقط لبعدها عن دار الإسلام من جهة، وعدم انتشار الإسلام بها من جهة أخرى، الذي كان يعتبر عامل انتشار الحضارة مثل ما صرح به الإصطخري في كتابه مسالك الممالك حوالي (340هـ/951م) :"...أما بعد فإني ذكرت في كتابي هذا أقاليم الأرض على الممالك وقصدت منها بلاد الإسلام بتفصيل مدنها وتقسيم ما يعود بالأعمال المجموعة إليها (...) ولم أذكر بلد السودان في المغرب والبجة والزنج ومن في أعراضهم من الأمم لأن انتظام الممالك بالديانات والآداب والحكم وتقويم العمارات بالسياسات المستقيمة وهؤلاء مهملون لهذه الخصال ولا حظّ لهم في شيء من ذلك فيستحقون به إفراد ممالكهم بما ذكرنا به سائر الممالك".

لذلك وفق هذا المنهج نجد افتقار المعلومات في مصادر المرحلة الأولى الممتدة بين ق08م إلى ق10م التي قدرها بعض الباحثين المهتمين بالفترة الوسيطة، لضحالتها وامتزاجها بحكايات ذات بعد عجائبي وغرائبي، كأن تذكر بعض المصادر مسيرة أرض الحبشة والسودان مسافة سبع سنين كما جاء في كتاب ابن خرداذبة (المسالك والممالك)، أو أن تكون لعنة نوح (عليه السلام) على ابنه كوش سبب تعمير بلاد السودان مثلما أوردها ابن خلدون في مقدمته ومنتقدا لها، أو أن ينبت الذهب في غانة مثل ما ينبت الجزر كما جاء في كتاب ابن الفقيه في مختصر كتاب البلدان، إلى غير ذلك من الحكايا والأعاجيب التي وردت في كتب هذه المصادر الأولى عن أهل بلاد السودان وعاداتهم وتقاليدهم أو ظروف توليهم الحكم في ممالكهم.

Univ-DBKM.Dz

لقد أورد الباحث "جوزيف كيوك *Cuoq J.*" في مدونة كتابه الخاصة بالمصادر العربية المتعلقة ببلاد السودان خلال العصر الوسيط ما يقرب من أربع وعشرين إسما عربيا[1]، تضمنت مؤلفاتهم إشارة عن المنطقة فيما بين القرن 2-4هـ/ 8-10م، ولعل من أهمها نجد:

01- **إبن عبد الحكم:** عبد الرحمن بن عبد الله (ت 275هـ/871م) المصري صاحب المؤلف التاريخي "فتوح مصر والمغرب" الذي كان مهتما برصد حركة الفتوحات الإسلامية في شمال إفريقيا وجنوبها، حيث ذكر في مصنفه إلى فتح "عقبة بن نافع الفهري" لكوار (إقليم جنوب الفزان) في سنة 46هـ/666م، ثم أشار لحملة "عبيدة الله بن أبي عبيدة" على إقليم السوس (جنوب المغرب) وأرض السودان في سنة 116هـ/734م، وهو بهذه يسجل أول احتكاك بين العرب الفاتحين وشعوب إفريقيا السوداء جنوبي الصحراء.

02- **ابن خرداذبة: أبو القاسم عبيد الله بن بن عبد الله (~820-912م):** مؤرخ وجغرافي، على الرغم من أنه لم يقدم الشيء الكثير عن بلاد السودان، إلا أنه اشتهر بكتابه "المسالك والممالك" الذي يعتبر أول كتاب جغرافي، والذي سيعتمده الكثير من الجغرافيين والرحالة في منهجه وأسلوبه في الكتابة الجغرافية بل وحتى إقتباس مضمون العنوان "المسالك والممالك" الذي سيتكرر كثيرا في المصنفات اللاحقة. ومما لا شك فيه أن مناصبه الإدارية التي كان يشغلها في خدمة الولاة العباسيين (المأمون، الواثق بالله...) هي التي كانت وراء تحديد الكثير من أعماله، فقد ترأس ابن خرداذبة (أبو القاسم) ديوان البريد في كثير من أقاليم الدولة العباسية، وقد عهد إليه في أيام خلافة "الواثق بالله" (227-232م/ 842-847م) منصب "صاحب البريد والخبر"، وعمله هذا يجبره على تحديد المسافات بين البلدان ووضع الطرق وفهم الأوضاع الجغرافية والإدارية في الأقاليم وتحديد نسبة الخراج فيها، وقد كان أول من وصف الطريق البري إلى الصين، فكتابه يتضمن

[1] Recueil des sources arabes concernant l'Afrique occidentale du VIIIe au XVIe siècle: (Bilād al-Sūdān). Ed. CNRS, Paris, 1975. 490 p.

Univ-DBKM.Dz

دليلا للكثير من الطرق الرئيسية ووصفا للمدن التي تقع عليها، وجمع ابن خرداذبة مواد كتبه من الوثائق الرسمية التي كانت تحت يده إضافة لما استفاده من مؤلفات من سبقوه كبطليموس عالم الفلك والجغرافيا والرياضيات الإغريقي. وهناك من يقول أن كتابه صدر في عام 850م ثم أضاف إليه ونشره مرة ثانية في عام 886م، وكما سبقت الإشارة أن تحديده لبلاد السودان لم تكن دقيقة حيث يذكرها بما يلي: "...ووجدت أرض الحبشة والسودان مسيرة سبع سنين، فأرض مصر جزء واحد من ستين جزءا من أرض السودان، و السودان جزء واحد من ستين جزءا من الأرض كلها."

03- **اليعقوبي: أبو العباس أحمد بن يعقوب**، جغرافي ومؤرخ اختلف الدارسون في تاريخ وفاته، إلا أن أغلبهم يرجح سنة 284هـ/897م، كان اليعقوبي رحالة جاب عديد بلدان المشرق والمغرب من بلاد الإسلام وساح فيها كثيرا، وساعدته هذه الرحلات في أن يلم ويجمع مادة كتابه المسمى "كتاب البلدان" الذي انتهى من تأليفه في عام 278هـ/891م. الذي أشار فيه للبلاد الواقعة جنوب المغرب الإسلامي، أي الصحراء وبلاد السودان وجاءت معلوماته عنها ذات طابع سياسي واجتماعي مع إشارات لمعلومات طبوغرافية وإثنوغرافية، هناك من رآها تعكس المهام التي كلف بها من طرف السلاطين العباسيين في التعرف على الغرب الإسلامي الذي كان مستقلا عنهم بحكم أنه كان يعمل كموظف في جهاز الدولة، ويعتبر اليعقوبي أول مصدر أشار وذكر إمارة "ملل" التي ستعرف لاحقا بامبراطورية مالي في القرنين 13-14م.

04- **ابن الصغير**: لم يرد شيء عن الإسم الكامل أو تاريخ ميلاده ووفاته، إلا ما استشف من الكتاب الذي ألفه عن الدولة الرستمية بتيهرت والذي حمل عنوان "أخبار الأئمة الرستميين"، الذي يبين عنوانه محتواه من خلال ذكر حكام الدولة الرستمية من النشأة إلى تاريخ قرب سقوطها، لذلك يعتبر ابن الصغير مؤرخ الدولة الرستمية الأول على الرغم من أنه لم يكن على نفس مذهبهم الإباضي، لكنه كان مستوطنا لتيهرت في الربع الأخير من القرن 3هـ/9م. ومكث بها طويلا مكنته من جمع مادة كتابه الذي يتناول حكام دولة تيهرت الذين اتخذوا لقب الإمام منذ قيامها

Univ-DBKM.DZ

على يد المؤسس الأول "عبد الرحمن بن رستم" (160-171هـ/777-787م) إلى غاية سنة 290هـ/903م، وهو التاريخ الذي انتهى إليه كتابه أي قبل أقل من عشر سنوات على سقوط الدولة وانهيار الإمارة الرستمية على يد الفاطميين. وأهم ما جاء في كتابه عن بلاد السودان تلك العلاقات التجارية العابرة للصحراء التي كانت بين إمارة الرستميين مع ممالك بلاد السودان، وصلت لتبادل السفارات بينهما. وذلك أن ابن الصغير ترك لنا شهادة مفادها، أن الإمام الرستمي أفلح بن عبد الوهاب أوفد سفيرا إلى ملك السودان، يدعي "محمد بن عرفة" حاملا معه هدية وكانت هذه البعثة، التي تمت على الأرجح مع الملك الغاني (تكلان)، أو خليفته (تلوتان)، والتي صادفت فترة حكم الإمام أفلح بن عبد الوهاب وهي الفترة بين (180هـ إلى 220هـ/ 796م إلى 844م).

05- **ابن الفقيه (أبي بكر أحمد بن محمد الهمذاني):** عاش بين سنتي 290-340هـ/903-951م،ولد بهمذان لأسرة اشتهرت بعلم الحديث والأدب وهو من العلماء البارزين في القرن 4هـ/10م، له كتاب "البلدان" نحو ألف ورقة، و"مختصر كتاب البلدان" صنفه بعد موت الخليفة المعتضد، تكلم عن بلاد السودان وما يلاحظ أنه نقل ونحل عن ابن خرداذبة في تحديد أرض الحبشة والسودان بنفس العبارة "وأرض السودان مسيرة سبع سنين...إلخ"، وذكر أن أهل النوبة كانوا دائما ما يغيرون على أهل الصعيد بمصر حتى تم بناء صور عازل بينهم بطول 30 فرسخ، وذكر جزءا من التنوع البيئي الذي كانت عليه بلاد البجة والنوبة مثل حيوان "الكركدن، والزرافة..."، وذكر ديانتهم اليعقوبية (نصارى) وللصقالبة منهم صلبان (صليب) وذكر بعض مدنها، في حين يذكر أهل البجة بأنهم عباد أوثان، ويحدد المسافة بين بلاد النوبة والبجة والحبشة مع باقي بلاد المغرب ومصر بعدد الأيام والليالي، ويذكر أنه يكثر في بلادهم معدن الزبرجد، كما ينتشر في بلاد إلى الجنوب منهم تسمى "تكنة" أهلها عراة وثنيون في مفترق نهر النيل وتنبت معدن الذهب كما في غانة".

06- **ابن حوقل (محمد أبو القاسم):** ولد في نصيبين في شمال شرق الجزيرة الفراتية، وهو مؤرخ وجغرافي وررحالة وتاجر مسلم، ألف عديد الكتب لعل من أشهرها كتاب

Univ-DBKM.DZ

"صورة الأرض"، اتخذ التجارة مهنة له، وبدأ تجواله من بغداد عام 331هـ/943م، وعرف العراق وإيران وجزءا من الهند عن كثب، وحملته أسفاره إلى شمال إفريقيا والأندلس، وزار نابولي وباليرمو في إيطاليا، وعاد من أسفاره عام 362هـ/973م، وهذا يعني أنه قضى في الترحال نحو ثلاثين عاما. عاش ابن حوقل طويلا في قرطبة في عهد عبد الرحمن الثالث، اي عهد ازدهار خلافة الأمويين في الأندلس، والتقى الاصطخري عام 340هـ/951م، فأعجب به الاصطخري وطلب منه مراجعة كتابه "المسالك والممالك"، ليقف على الأخطاء التي ربما ارتكبها في المناطق التي لم يزرها.

وقد سلك ابن حوقل أيضا المنهج نفسه الذي سار عليه الاصطخري، في وضع الخريطة (المصور) في صدر بحثه عن كل إقليم، وبذلك تصبح الخريطة اساسا للدراسة الجغرافية، وأهميتها كوسيلة لتوضيح المعلومات الجغرافية، أدركها العلماء المسلمون قبل الإدريسي، وارتبطت جغرافيتهم الإقليمية منذ بداياتها برسم الخريطة التي أطلقوا عليها مصطلحات "الرسم" و"الصورة"، ولم يظهر مصطلح الخريطة إلا في القرن التاسع عشر. ولعل شغف ابن حوقل منذ حداثته بأخبار البلاد والوقوف على أحوال الأمصار قد حدد منهجه، فهذه الأمور جعلته كثير الاستعلام والاستخبار من المسافر والتاجر، وقراءة الكتب لتحقيق غايته، وكل ذلك فسره في كتابه، وكان لأسفاره الأثر الكبير في كتاباته، وهذا ما يؤكده بقوله أنه كان يسأل الرجل الصادق الذي يشعر بصدقه، وكان يجمع ما يأخذ منه برواية ثانٍ وثالث، مؤكدا ذلك بقوله: "... تتنافر الأقوال وتتنافى الحكايات، وكان ذلك داعية إلى ما كنت أحسه في نفسي بالقوة على الأسفار وركوب الأخطار، ومحبة تصوير المدن وكيفية مواقع الأمصار، وتجاور الأقاليم والأصقاع".

ظل أبو القاسم بن حوقل يضيف وينقح مؤلفه "صورة الأرض" إلى حين وفاته في سنة 379هـ/988م، وقد اختلف الباحثون في تحديد الحوافز الحقيقية التي كانت وراء تجواله في البلاد الإسلامية وغيرها من مناطق العالم القديم، ويرى البعض أن دور التاجر المتجول، لم يكن سوى قناعا اتخذه للتستر على مهامه التجسسية في المغرب الإسلامي لحساب الفاطميين، في حين يرى يعتقد آخرون أن اشتداد

Univ-DBKM.DZ

المحن وتأزم أوضاع المشرق الإسلامي، شكل السبب الأساس والحافز الحقيقي لتنقلاته وتجواله.

يعتبر ابن حوقل أول من زار بلاد السودان الغربي وذكر أهم ممالكها وقبائلها، فقد ذكر "غانة" وبلاد السودان ضمن إقليم المغرب، وفي سنة 340هـ/951م زار ابن حوقل مدينة سجلماسة، ومنها دخل الصحراء وتوغل فيها إلى أن وصل إلى مدينة "أودغشت" القريبة من مجال مملكة "غانة" وعاصمتها "كمبي صالح"، حيث قال عنها:"وأودغست مدينة لطيفة أشبه بلاد الله بمكة وبمدينة الجرزوان في بد الجوزجان من بلاد خراسان، لأنها بين جبلين ذات شعاب، ومن اودغست إلى غانه بضعة عشر يوما، ومن غانه إلى كوغه نحو شهر، ومن كوغه إلى سامه دون الشهر، ومن سامه إلى كزم نحو شهر أيضا، ومن كزم إلى كوكو شهر، ومن كوكو إلى مرنده شهر، ومن مرنده إلى زويله شهران، ومن زويله إلى اجدابيه شهر، ومن زويله غلى فزان خمس عشرة مرحلة، ومن فزان إلى زغلوه شهران،... وعلى سمت اودغست المتقدم ذكرها في نقطة المغرب أوليل وهو على نحر البحر وآخر العمارة، واوليل معدن الملح ببلاد المغرب وبينها وبين أودغست شهر". وقد ذكر عدد كبير من القبائل المنتشرة في هذه الصحاري.

وباعتبار المشاهدة والمعاينة فقد اكتست أقواله ومعلوماته عن الصحراء وبلاد السودان أصالة ومصداقية بالغتي الأهمية، ولم تجد المصادر اللاحقة بدا من تأكيدها ومسايرتها، وليس أحسن من أن نعتمد وثيقة يقول صاحبها: "شاهدت، وعاينت..."، لذلك فإنه مع ابن حوقل سجلت الرواية العربية المتعلقة ببلاد السودان تطورا ملموسا، لتخرج من دور الهامش والظل في كتاباتهم الأولى.

.....

Univ-DBKM.DZ

المحاضرة (5-6):

لقد كانت المعلومات التي ضمنها ابن حوقل في كتابه "صورة الأرض" مهمة جدا لتشد انتباه الرحالة والجغرافيين والمؤرخين اللاحقين نحو بلاد السودان، لتصبح محور اهتمامهم أيضا والتركيز أكثر على ضبط معلوماتهم عنها، ساهم فيها عامل مهم آخر هو بداية ظهور مصنفات وكتابات ينتمي مؤلفوها وأصحابها إلى منطقة الغرب الإسلامي بدءا من البكري، الإدريسي، وابن سعيد، وابن بطوطة، وابن خلدون،...إلخ، حتى أن المعلومات التي تخص بلاد السودان تكاد تكون حكرا لمؤرخي وجغرافي الغرب الإسلامي ومصنفاتهم منذ الفترة الممتدة من القرن 11م إلى 14م، ولعل من أهمها نجد:

01-**البكري (ابو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري):** مؤرخ جغرافي وموسوعي وأديب وله معرفة بالنبات أندلسي النشأة، ولد في ولبة قرب إشبيلية حوالي عام 1030م وتوفي بقرطبة عام 1094م، هو أول الجغرافيين المسلمين بالأندلس، له عديد المؤلفات واشتهر بها حتى قيل أن ملوك الأندلس كانوا يتهادون مصنفاته. عاش بقرطبة في عصر ملوك الطوائف، وقد اهلته مواهبه الأدبية المتنوعة للعمل كوزير لأمير "ألميرية"، وعلى الرغم من أنه لم يغادر الأندلس، فقد ترك لنا مصنفا جغرافيا على غاية من الأهمية يدعى "المسالك والممالك"، والكتاب في عدة أجزاء، ضاع الكثير منه وفقدت أجزاؤه، والجزء الخامس منه الذي يحمل عنوان "كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب"، والذي أصبح يطبع كتابا مستقلا عن الأجزاء الأخرى، يذكر فيه معلومات أصيلة عن الحركة المرابطية في مرحلتها الصحراوية، ومعلومات عن مملكة "غانه"، ومعلومات أخرى متنوعة عن بلاد السودان، وكل معلوماتها مستقاة من المصنفات والكتب التي ألفت قبله سواء التي وصلت إلينا أو لم تصل مثل كتب المسالك والممالك التي اعتمدها البكري وكانت متوفرة في زمنه لكنها لم تصلنا مثل كتاب الجيهاني، والمهلبي، ومحمد الوراق، وباعتبار أهمية وأصالة معلومات البكري عن بلاد السودان، لم يتردد أصحاب المصادر اللاحقون عليه في الأخذ عنه، أو حتى انتحال جل ما كتبه عن المنطقة مثلما فعل صاحب "الاستبصار في عجائب الأمصار".

Univ-DBKM.Dz

وحسب تصريح البكري نفسه، فإنه فرغ من تحرير مؤلفه عام 460هـ/1068م، لكن محققه "دوسلان *De Slane*" فيعود بتاريخ التأليف إلى ما قبل سنة 453هـ/1062م. أما ما ذكره عن بلاد السودان، فقد تحدث عن السودان الشرقي وذكر أصل السودان من ولد كوش من البجة وذكرها "بالبجاة" والزنج والحبشة، وملوكهم النصارى. كما تطرق إلى بلاد النوبة والمعادن الثمينة التي تحتويها أرضها، ووصف حيواناتها، كما ذكر مملكة دنقلة وممالك علوة وعاصمتها سوبا، ووصف الزنوج وطيبتهم، وأشاد بإجادتهم رمي النبال وذكر حروبهم مع عمر بن العاص وعبد الله بن سعد، وسماهم برماة الحدق، وتحدث عن "معاهدة البقط"، كما ذكر اتساع بلاد الحبشة، وأنواع التجارة التي تتجهز إليها، وذكر ممالك وأمصار السودان الأوسط، مثل كوكو، والزغاوة، وزويلة، وفزان، وغيرها.

كما تحدث عن الطريق من وادي درعة في الصحراء إلى بلاد السودان، ووصف الصحراء الكبرى ومفازاتها ومسالكها المؤدية إلى أرض السودان الغربي، كما تطرق إلى أودغست ووصف تجارتها وسكانها وعمرانها وملكها والطريق المؤدي إليها، وتكلم عن عديد مدن وقرى بلاد السودان المشهورة واتصال بعضها ببعض وحدد المسافات بينها، وما فيها من الغرائب وسير أهلها، حيث تكلم عن مملكة التكرور وملها "واردیابي" وإسلامه على أيدي المرابطين، وذكر غانه وسير أهلها والطريق المؤدي إليها، حيث أن المعلومات المقدمة عنها كانت كثيرة وغاية في الأهمية، فهو بذلك يعد أقدم وأهم مصدر حول مملكة غانة. كما تحدث عن المرابطين وبداية نشأة حركتهم في صحراء صنهاجة وفتحهم لغانة، وأشار لعبد الله بن ياسين وما شذ فيه من الأحكام.

2-الإدريسي (أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله الإدريسي): يعد من كبار الجغرافيين في التاريخ وأحد مؤسسي علم الجغرافيا، كما أنه كتب في التاريخ والأدب والشعر والنبات ودرس الفلسفة والطب والنجوم في قرطبة، استخدمت مصوراته وخرائطه في سائر كشوف عصر النهضة الأوربية، حيث لجأ إلى تحديد اتجاهات الأنهار والبحيرات والمرتفعات، وضمنها أيضا معلومات عن المدن الرئيسية بالإضافة إلى حدود الدول.

Univ-DBKM.DZ

ولد في مدينة سبتة بالمغرب في سنة 493هـ/1100م وتعلم بها وفي قرطبة، ويرجح أن وفاته كانت بعد عام 560هـ/1165م، سافر في البلاد وزار مصر والحجاز، والقسطنطينية وسواحل آسيا الصغرى، ووصل سواحل فرنسا وإنجلترا، عاش فترة في صقلية ونزل ضيفًا على ملكها "روجر الثاني" في سنة 533هـ/1138م، وهناك من يذكر أنه انتقل إلى صقلية بعد نكوص الدولة الإسلامية وتراجع وهجها، خاصة وأن الملك النورماني "روجر الثاني" كان محبا للعلم والمعرفة، واللذان وجدهما عند الإدريسي، حيث شرح له كروية الأرض وموقعها في الفضاء، وأمر الملك الصقلي أن ينقش عمله هذا على دائرة من الفضة محددا عليها خارطة العالم، وهو ما يعرف باسم "لوح الترسيم"، واستخدم الإدريسي خطوط الطول ودوائر العرض على الخريطة ومجسم الكرة الأرضية التي صنعها، مع أن هذه الخطوط والدوائر كانت تستعمل قبله، لكنه ضبطها أكثر وأعاد تدقيقها لشرح اختلاف الفصول بين الدول، ويقال أن ذلك المجسم للكرة الأرضية دمر عقب اضطرابات عرفتها مدينة صقلية بعد وفاة الملك "روجر الثاني".

كما أنجز في ظل رعاية هذا الملك كتابه المعروف بـ "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق"، الذي قسم فيه الأرض إلى 7 أقاليم كعادة سابقيه، وفي كل إقليم منها 10 أجزاء، ويسود الاعتقاد عند مؤرخي الجغرافيا، أن كتاب "النزهة" ما هي إلا شرح وتعليق على الخرائط التي صنعها الإدريسي لهذا الملك، والذي انتهى منه في سنة 548هـ/1154م، وذلك بعد 15 سنة من البحث والتقميش، ويرد به القسم الخاص ببلاد السودان في الجزء الذي يصف "المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس"، وذلك في الإقليم الأول والثاني بالأخص بمعلومات فريدة عن الصحراء وكيفية اجتياز القوافل لها، كما يتضمن إشارات تاريخية وإثنوغرافية هامة عن بلاد السودان، على أن معظم معلوماتها على غزارتها هي إعادة لما وصفته المصادر السابقة مثل: ابن خرداذبة، البكري، اليعقوبي، وابن حوقل والمسعودي، وبطليموس...إلخ كما يذكر هو بنفسه.

Univ-DBKM.DZ

3-**ابن سعيد المغربي (أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد):** ولد بغرناطة حوالي سنة 610هـ/1214م، مؤرخ أندلسي ومن الشعراء والعلماء بالأدب، نشأ واشتهر بغرناطة ورحل إلى إشبيلية لطلب العلم وزيادة معارفه، وهو من أسرة عريقة الحسب والنسب، كان لأفرادها صلة بالملوك، من خلال إمارتهم بقلعة "يحصب" والتي كانت تسمى أيضا بقلعة "بني سعيد"، وكان أبوه "موسى" من أهل الأدب والتأليف، حيث عمل على إتمام كتاب "المغرب في حلى المغرب" الذي كان الجد "عبد الملك" قد بدأه، لكن الوالد توفي قبل أن ينجز العمل فتعهده ابن سعيد وأكمله.

قضى معظم حياته في الأسفار والبحث وارتياد المكتبات في مختلف عواصم العالم الإسلامي، وبلاد آسيا، زار خلالها مصر والعراق والشام، وأدى فريضة الحج في سنة 652هـ/1254م ثم رجع إلى المغرب، والتحق بتونس ببلاط "أبي عبد الله المستنصر"، ثم عاد إلى المشرق ثانية في سنة 666هـ/1267م في رحلات طويلة وصل إلى أرمينيا، كما اتصل بـ"هولاكو" إمبراطور التتر وأقام لفترة في دولته، ويذكر أنه توفي بتونس وقيل في دمشق في حدود سنة 685هـ/1286م، له عدة مؤلفات منها: "المشرق في حلى المشرق"، و"المغرب في حلى المغرب" في أربعة مجلدات، و"الطالع السعيد في تاريخ بني سعيد"، .. وكتب عديدة أخرى في التاريخ والأدب والتراجم، والفلك، والجغرافيا.

تطرق ابن سعيد إلى ذكر بلاد السودان ما وراء الصحراء في كتابه الذي حمل عنوان "كتاب الجغرافيا" الذي حققه الباحث إسماعيل العربي، والذي ورجح أن ابن سعيد وضع مؤلفه هذا في غضون السنوات الـ15 الأخيرة من حياته، وأورد ذكر بلاد السودان فيه ضمن الإقليم الأول والثاني من الجزء الأول من الأرض، فذكر بلاد التكرور وأرض الدمدم والونغارا وكوكو وغانة والكانم محددا الأطوال والمسافات بينها مع ذكر شعوبها وعاداتهم وما تتميز به من مواد ومنتجات، وذكر نهر النيجر (يسميه نيل غانا)، وأيضا تطرق للسودان الشرقي ووصف مناطق منابع نهر النيل، وبعض مدن شرق إفريقيا(مالندة، ممبصة، سفالة) وغيرها من الممالك التي كانت منتشرة في بلاد السودان الغربي، ولو أن جل معلوماته استقاها

Univ-DBKM.Dz

من كتب ومصنفات الذين سبقوه وخاصة مصنف رحلة "ابن فاطمة" المفقودة، والذي نقل عنها واقتبس منها الكثير، والتي أمدتنا بمعلومات هامة تتعلق بالوضعية الدينية لبلاد السودان وأخرى جغرافية.

4-ابن أبي زرع (أبو الحسن علي بن عبد الله): توفي في سنة 741هـ/1341م، صاحب كتاب "الأنيس المطرب روض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس"، العلامة المدرس، والإمام الخطيب البليغ، ولي إمامة مسجد القرويين، من أسرة عريقة وبيت علم توالى أفرادها إمامة مسجد القرويين، وألف ابن ابي زرع كتابا آخر سماه "الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية".

يتناول كتاب "الأنيس بروض القرطاس" تاريخ المغرب ومدينة فاس كما هو مبين في عنوانه، منذ بداية الدولة الإدريسية إلى غاية سنة 726هـ/1326م من سنوات عهد السلطان المريني "عثمان بن يعقوب بن عبد الحق" المعروف بكنيته "أبي سعيد". وفق منهج كتابة تاريخ الدول وليس الحوليات وذلك بالتركيز على نشأة الدولة ونسبها وقبائلها ومراحل تأسيسها، ثم يسرد تاريخ سلاطينها وتعاقبهم وسيرتهم مثل ما يعنون فصوله (الخبر عن...، الخبر عن دولة الأمير...).

وأهم ما يفيد به عن منطقة بلاد السودان إشارته وحديثه عن الدولة المرابطية اللمتونية وقيامها بالمغرب ونشأتها في الصحراء مثل ما ذكر البكري، إلا أنه استدرك عليه التطورات التي عرفتها الحركة المرابطية بالصحراء وبلاد السودان بعد السنة 460هـ/1068م التي توقف فيها البكري. ويشير لعديد القبائل المتفرعة عن صنهاجة المتوزعة في الصحراء الكبرى، ويلتقي ابن أبي زرع مع ابن عذاري (البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب)، وعبد الواحد المراكشي (المعجب في تلخيص أخبار المغرب)، وغيرهم من أصحاب الحوليات في تجاهلهم للأحداث التي عرفتها بلاد السودان بعد القرن 5هـ/11م، أي بعد انطفاء شعلة المرابطين سياسيا بالصحراء.

5-العمري (شهاب الدين أحمد بن يحي بن فضل الله): مؤرخ وأديب دمشقي، ولد بدمشق في سنة 700هـ/1301م وتوفي بها في سنة 749هـ/1349م، إلا أن جل مراحل عمره قضاها بمصر أين نشأ وتعلم بها، ينتمي لعائلة ذات علم وجاه حيث

Univ-DBKM.DZ

ارتبطت أسرته برئاسة ديوان الإنشاء (بمصر والشام) للدولة المملوكية لمدة قرن من الزمان، الأمر الذي ساعده على تولي نفس الوظيفة في بلاط الملك الناصر "محمد بن قلاوون" (693-741هـ/1293-1340م) بمصر.

اهتم العمري بدراسة الجغرافيا السياسية ودراسة تواريخ الأمم وأحوالها، وله العديد من المؤلفات لعل الذي يفيدنا في بلاد السودان هو موسوعته الكبرى التي سماها "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار" على عادة مصنفات من سبقوه من الجغرافيين والمؤرخين العرب، أين أشار في الباب الثامن إلى ممالك المسلمين بالحبشة وقسمها إلى سبعة فصول التي عرفت بممالك الطراز الإسلامي وهي مملكة (أوفات، دوارو، أرابيني، هدية، شرخا، بالي، داره)، في حين تناول الباب التاسع ذكر مملكة الكانم والنوبة، وأفرد الباب العاشر لمملكة مالي، وجاءت معلوماته عن هذه الأخيرة من أوفر وأغزر النصوص التاريخية التي نملكها عن مملكة مالي ونقل عنه الكثير من المؤرخين اللاحقين، وعلى الرغم من أنه لم يسافر إلى بلاد السودان إلا أن أوصافه لأحوال المملكة كانت فريدة وغنية بالمعلومات التاريخية، حيث كان حريصا على التدقيق في نقل الأخبار كما ذكر ولا ينقل: "إلا عن أعيان الثقات، من ذوي التدقيق في النظر، والتحقيق للرواية، واستكثرت ما أمكنني من السؤال عن كل مملكة...".

وذكر أنه نقل عن رجل عاش في إفريقيا لمدة 35 سنة، زيادة على التجار وبعض حجاج بلاد السودان الوافدين على مصر في طريقهم إلى مكة، وكل من قدم إلى بلاط السلطان. وما من شك أن مؤهلاته المعرفية خاصة في المجال الجغرافي وتقنية استقصاء الأخبار، فضلا عن طبيعة وظيفته في البلاط، التي مكنته من الوقوف على الوثائق والمراسلات الرسمية، ساعدته وكان لها الأثر الكبير في تميز رواياته سواء من حيث صدقها أو خصوبتها، ونقل عنه الكثير من المؤرخين على غرار القلقشندي في كتابه "صبح الأعشى في صناعة الإنشا" الذي اقتبس عنه نصوصا طويلة.

لقد بدأ العمري كتابه "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار" في سنة 738هـ/1339م واستمر به يضيف ويعدل إلى غاية سنة وفاته 749هـ/1349م،

Univ-DBKM.DZ

معتمدا على كثير من المصادر المكتوبة والشفوية. ومن أهم مصادر العمري عن بلاد السودان نذكر "أبو عثمان سعيد الدكالي"، وهو ممن سكن عاصمة مالي لمدة 35 سنة، ثم عدد من تجار وموظفي الدولة المصرية، الذين كان لهم احتكاك مباشر بملك مالي "منسا موسى" أثناء توقفه بالقاهرة في طريقه إلى الحجاز برسم أداء فريضة الحج عام 724هـ/1324م.

6-ابن بطوطة (محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي): المعروف بابن بطوطة، ولد بطنجة في سنة 703هـ/1304م، ولد لأسرة تولى الكثير من أفرادها القضاء، لذلك تعهده والداه بالرعاية وتعليمه ليتهيأ لتولي القضاء، فحفظ القرآن، ودرس العلوم الدينية والأدب والشعر، لكنه لم يتم دراسة الفقه بسبب رغبته وولعه بالسفر والترحال، وخرج من طنجة وهو شاب ابن 22سنة بغرض أداء رحلة الحج (725هـ/1325م)، لتكون سببا في بداية سياحته في الأرض التي دامت 29 سنة ونصف السنة دون انقطاع، لما عاد إلى فاس في سنة 754هـ/1353م، لذلك لقبته جمعية "كمبردج" في كتبها وأطالسها بـ "أمير الرحالة المسلمين Prince of Muslim Travelers".

زار في رحلاته مختلف مناطق عالم الشرق منطلقا من بلاد المغرب إلى مصر والحجاز والعراق واليمن ثم شرق إفريقيا وإيران والشام مرورا ببيت المقدس، والأناضول ومدينة القرم (جنوب روسيا وشرق أوربا) ومعظم بلاد آسيا الوسطى ووصل إلى الهند ثم توجه نحو الصين مارا بمختلف الجزر التي بجوارها مثل جاوة (أندونيسيا) وشبه جزيرة الملايو (ماليزيا) وما وراءها من بلاد، ثم عاد إلى موطنه بالمغرب مرورا بالشام ومصر، وارتحل إلى الأندلس، ثم نزل إلى بلاد السودان جنوب الصحراء في آخر رحلة له لزيارة ملك امبراطورية مالي.

وكان طريق رحلته إلى بلاد السودان مرورا بمدن عدة منها سجلماسة، تغازة، إيوالاتن (ولاتة) التي مكث بها خمسين يوما، ثم إلى عاصمة مملكة مالي "نياني" التي أقام بها مدة ثمانية أشهر، وغادرها في 22محرم 754هـ/1353م، ذاهبا إلى تمبكتو وكوكو (غاو)، تكدا، الهقار، ثم سجلماسة ثم فاس لزيارة السلطان أبي عنان الذي كان قد استدعاه ووصله أمره لما كان في مدينة تكدا. وطلب منه كتابة

Univ-DBKM.DZ

رحلته كاملة وهو ما نفذه ابن بطوطة وانتهى من تقييدها في 03 ذي الحجة 756هـ/1355م، ثم عهد السلطان إلى كاتبه "محمد بن أحمد بن جزي" بتنقيحها وصياغتها صياغة أدبية فأتم ذلك في شهر صفر من سنة 757هـ/1356م. وتولى ابن بطوطة مهنة القضاء في الدولة المرينية (بتامسنا) بقية حياته وعرف عنه أنه كان جوادا محسنا وتوفي في سنة 779هـ/1377م.

لقد دامت رحلته السودانية مدة ناهزت 22 شهرا، وهي آخر رحلات ابن بطوطة، زار خلالها العديد من المدن السودانية في جنوب الصحراء، ولعل أهمها عن عاصمة المملكة، حيث نقل لنا فيها الحياة الاجتماعية والسياسية التي كانت قائمة في مملكة مالي على عهد الملك "منسا سليمان" الذي استقبله ورحب به، فذكر لنا وصف بلاطه ومجلسه وحاشيته وعلاقته مع الرعية وتعامله معها، وموكب الملك في المناسبات والأعياد، ووصف أسواق المملكة وتجارتها وأهم سلعها التي تتمثل في معدن تبر الذهب الذي يستخرج من مناطق معينة في الجنوب يمنع زيارتها على الأجانب. كما ذكر عديد المدن التي زارها كتمبكتو وتكدا ومعدن النحاس بها. أما عن شرق إفريقيا فيذكر أنه زار مدينة زيلع (ميناء)، ثم أبحر إلى مدينة "مَقْدَشُو" والتقى بسلطانها واسمه "أبو بكر ابن الشيخ عمر" والذين يدعونه بـ"الشيخ"، وذكر موكبه ولباسه، وتحية وزرائه له، ووصف أهلها والتجارة بها، وأنواع طعامهم وفاكهتهم، ثم ارتحل إلى جزيرة مَنْبِسَى (مُمبسّا) وذكر فاكهتها وعادات أهلها، ثم سافر إلى "كُلْوا" ووصف سكانها وذكر سلطانها (أبو المظفر حسن) كثير الغزو على بلاد الزنوج، وذكر أن من كلوة إلى سفالة مسيرة شهر ومن سفالة إلى "يوفي" مسيرة شهر، ومن هذه الأخيرة يستقدم معدن تبر الذهب إلى سفالة.

7-ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد): ولد بتونس في عام732هـ/1332م وتوفي بالقاهرة في سنة 808هـ/1406م، ينتمي لعائلة اشتهرت بالعلم والسياسة كانت قد هاجرت من الأندلس (إشبيلية) إلى تونس في منتصف القرن السابع الهجري/13م، تعلم على يد والده وكبار علماء تونس فحفظ القرآن الكريم، ومختلف كتب الفقه المالكي وتمكن من اللغة العربية، وبعد وفاة والديه وكبار معلميه بتونس على إثر وباء الطاعون في سنة 1352م، سافر إلى تلمسان لمواصلة تعليمه ودرس

Univ-DBKM.DZ

نصوص الفلسفة بها عبر مؤلفات ابن سينا وابن رشد، وتقلد عدة وظائف إدارية وقضائية في تلمسان وفي كل من غرناطة وتونس وفاس وبجاية ومصر، دخل في خدمة الملك "أبو عنان المريني" الذي عينه في مجلسه العلمي وكاتبا مؤرخا لعهده، ثم سافر في سنة 1363م إلى غرناطة ثم إلى إشبيلية، ثم عاد مجددا إلى بلاد المغرب ليستقر في قلعة "بني سلامة" (بمدينة تيارت حاليا) وأقام بها لمدة 4سنوات منقطعا عن الناس ومتفرغا لكتابة مصنفه الكبير الموسوم بـ "كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر"، الذي يقع في سبع مجلدات، وأولها المقدمة التي تقع مجلد والتي اشتهر بها أيضا بـ "مقدمة ابن خلدون" التي تعتبر مدخلا موسعا لهذا الكتاب الكبير، كما احتوت على منهجه في الكتابة التاريخية وأطروحاته الفكرية والنظرية تجاه العلوم الأخرى وأهمها علم العمران الذي يعد العلم المؤسس لعلم الاجتماع الحديث.

يتناول ابن خلدون ذكر بلاد السودان في "كتابه العبر" بدءا من المجلد الخامس الذي خصص فيه فصولا قصيرة وسريعة في ذكر مملكة غانة وسقوطها على أيدي قبائل الصوصو، والتي خلفتها فيما بعد مملكة مالي، والذي يعود له الفضل في حفظ قائمة أسماء ملوك مالي الذين تعاقبوا على حكم المملكة، لكنه لم يتطرق كثيرا لرصد الحياة الاجتماعية أو الاقتصادية لهذه المملكة، ربما لنه لم يزر المنطقة أو ربما لم يشأ إعادة ما تم نشره في مصادر السابقين عنها، كونه كان يعتمد في سرد أخبار مالي على الرواية الشفوية التي كان يستقيها من رجال الثقة من أهل السودان الذين كانوا يمرون بمصر في طريقهم إلى الحج بمكة.

حيث كان يشير إلى مصادر معلوماته ومكانتهم ووظيفتهم فلما تحدث عن غانة يذكر: "أخبرني الشيخ عثمان فقيه أهل غانية وكبيرهم علما ودينا وشهرة..."، ولما تحدث عن صنغاي وعاصمتها جاو أو كوكو يقول: "وقال الحاج يونس ترجمان التكروري" ويقصد به ترجمان الملك "منسا موسى"، وفي موضع لما يتحدث عن مدينة "كوكو" يقول: "واخبرني القاضي الثقة أبو عبد الله محمد بن وانسول من أهل سجلماسة وكان سكن بأرض كوكو واستعملوه في خطة القضاء..."، كما أنه في كثير من الأحيان ينقد أو يشكك في بعض الروايات التي يستقيها من هؤلاء،

Univ-DBKM.Dz

حرصا منه على الأمانة العلمية والحقيقة التاريخية التي يجب أن تبتعد عن الزيف والمبالغة أو الروايات الخرافية والأسطورية.

لذلك هناك من يقول أن كتابته لتاريخ بلاد السودان كان أثناء إقامته في مصر الذي ارتحل إليها منذ سنة 784هـ/1383م وتمكن من نقل معلوماته عنها على قلتها من الحجاج السودانيين أو من الوفود التي تصل بلاط السلطان، كما نجد إشارات له عن بلاد السودان في مقدمته اين يشير لمملكة مالي ومدى اتساعها ولمدن المعروفة في الصحراء والتي كان يقول عنها أنها تتبع ملك مالي، حيث يقول مثلا: "...وعلى هذا النيل (نيل السودان) مدينة سلا وتكرور وغانة وكلها لهذا العهد في مملكة مالي من أمم السودان...".

Univ-DBKM.DZ